رائحة الأرض

قصة بقلم محمود الكعبي

لقد انتهت اللعبة ، وعاد بدون جواد أبيض، واحس بوطأة الطريق الطويل الذي قطعه ، وعانقت عيناه دنيا احبها ، وحلم بها طوال سنوات المنفى .

ايمكن ان تذهب هذه الارض ايضا .. ؟ وتجسم الالم الذي عانى منه طويلا .. لقد عاد ، أذن فقد انتهى شقاء الترحال الطويل . عاد لقريته ، لاخر المطاف ، لنهاية العالم ، بل للعالم نفسه .. وتعثر باحد الاخاديد المنتشرة ، كانت ثمة بساتين مهجورة ، وتداعت الصور الى مخيلته ، تذكر كيف كان يلهو واترابه هنا عند مشارف القرية ، ولم يعتره الالم ، بدا محايدا امام سلسلة الصور التي تجسمت امامه ، وفكر أنها ارض لن تضيع ابدا ، وان هذه الاخاديد تصلح ان تكون متاريس للقتال .. وان قتالا ما لن ينشب هنا .. هناك بعيدا سيدور .. حين ينشب هنا لن يكون ذلك مجديا .. هناك فقط يجب ـ وعض على الكلمات ـ يجب ان لا يتقدموا اكثر .

واحس بأنه مقهور ، فماذا أستطاع أن يقدم ، ماذا جاء به من جديد ، وماذا قدمه هناك ؟ .. ليس هنالك الا بضع شعيرات بيضاء بدأت تلتمع في رأسه ، وازدادت تقطيبته حدة .. ثمة أحساس خفي يملك لبه : اننا لسنا على ما يرام . تلك الحرب الهائلة التي دارت يبدو ان لا ظلال لها هنا ابدا . وثمة صبية يمرحون . وفي تلك الايام حمل بندقيته وذهب للجبهة ، كان يبدو وحيدا ضائعا ، وضع في غير مكانه بين قوافل السيارات العسكرية ، وارتال الجنود المنتشرة على الجانبين . قال له الجنود في الطريق ان عليه ان يضع خوذة على رأسه ، واحس بأن شيئا قد تقطع في اعماقه ، فهو لم يتصور ان الامور ستجري هكذا .

ـ القنابل تنفجر كل لحظة والشظايا تملأ الجو ، عليك بالخوذة.

ولانه لم يكن جنديا ، فلم يحصل على خوذة .

ولم تكن الخوذة مشكلته ، فهو قد ذهب ليقاتل ويستشهد ، ولم يكن خائفا من الموت ، ولا حريصا على نفسه ، الا ان الخوذة تعني اشياء لا يريد ان يقر بها ، كان يريد ان يحارب بطريقته الخاصة . وكان يتصور العدو طابورا يقف امامه ، وان الرصاص ينطلق من الجهتين، وانه سيقتل عددا كبيرا من اليهود قبل ان يقتل ، لماذا اذن الخوذة ؟ لم يكن يتصور انه سيحتاجها .

وحين امتلأت السماء بغربان اليهود بتلك الطائرات السود تلقي صواريخها نظر الى بندقيته ، وشعر انها غير مجدية في تلك اللحظة، والقى بنفسه في حفرة ليتقي القصف ، وهكذا وجد نفسه في خندق، رغم انه لم يكن ليقر حرب الخنادق .

وحين اقترب من خطوط النار الاولى ، اطلق بضع اطلاقات من بندقيته ألا انه اقلع عن ذلك بعد أن شاهد المدفعية الثقيلة وهي تصب حممها على مواقع العدو .

وتذكر انهم سيسألونه عن كل شيء دار هناك ، سوف يستنطقه اهله عن الجبهة وعن القتال ، وعن ادق التفاصيل ، فثمة عطش رهيب يجتاح نفوسهم .. ليس ممكنا ابدا ان يقول انه لم يشاهد يهوديا واحدا طيلة أيام المعركة ، وكل ما شاهده كان الغربان الحديدية السود ، والانفجارات العنيفة ، ليس ثمة بطولة يستطيع ان يرويها لهم ، فالحرب التي دارت لم تسمح له بابرازها ، وسيحركون رؤوسهم بأسى ، ويعضون شفاههم باصرار غريب ، ويحلمون بالثأر والانتصار.

وتناهى الى سمعه صوت آهات تتصاعد بحرقة واسى ، كان ثمة فلاح ينشج بحزن ابدي ، ويروي تعاسة متناهية الصدى عبر قرون ، وتوقف ليستمع الى الغناء ، وشعر ان الصوت قد حرك اوتار قلبه ، وتكامل حزنه الداخلي مع الصوت الذي يحكي قصة الارض . وغذ الخطى ، كان يريد أن يهرب ، ولم يشعر بحاجة لدخول بيته ، لقد كانت الخيبة ترفرف على أفكاره ، ويثقل الحزن كاهله ، وحين زغردت والدته وهي تحتضنه ، حرك الشيخ رأسه : ـ اذن فقد عدت سالما .

واجابه بأن البقاء لم يكن مجديا ، وانه سيعود ثانية ذات يوم ، وتطلع اليه الصغار بفضول ، ولفهم الصمت .

وفي المساء ، كان الراديو يذيع أخبار الامم المتحدة،والاجتماعات والقرارات ، واخبار الفيتنام ايضا .. وتساءل الشيخ : لماذا لم تهزم فيتنام الشمالية وهي تقصف منذ سنتين ، ولماذا لم يهزم الفيتكونغ ؟

وجد الجواب في ذروة يأسه ، وجد الحقيقة كاملة في تساؤلات ابيه ، لماذا لا نكون مثلهم ؟ مثل أهل هانوي او الفيتكونغ .

ليس ثمة بحث عن الحل هنا ، النار تسري في الهشيم ، وهدوء القرية الابدي يخفي اسرار الجمر المتوقد ، ثمة يد ما ، يد قوية جريئة ستزيح هذا الرماد الذي يحول دون تأجج النار ، وهنا في الاخاديد التي يعرفها ، والارض التي لعب فيها ، واشجار النخيل الباسقة التي تسلقها صغيراً ، كلها ستشترك في رسم الصورة . وتساءل في نفسه عن دوره ، وماذا يمكنه ان يكون غير داعية لهذه الروح الجديدة، للمقاومة ، أن لم يكن هو الداعية ، فسيوجد غيره ، سيجد دعاة المقاومة امامه اينما يتجه ، ينبتون دونما رعاية او سقاية ، كالنبات البري ، كعشب الربيع الذي ينبت بسبب المطر والمناخ ، كاشجار الغابة الوحشية ، تجد ما يخلفها قبل أن تتهاوى ، فتكتظ المسالك وتتشابك الاغصان وتوعر الدروب . قد يكونون أصدقاءه او أخوته او اخرين غرباء لا يعرفهم ، حتى ابوه الشيخ الذي يتكلم عن الفيتنام والفيتكونغ يصلح أن يكون داعية أو فدائياً واحدا من آخرين في قافلة لا تنتهي الا بزوا ل التحدي .

ووجد السؤال في اليوم الاخر على الوجوه المشدودة تنصت لاخبار عدن في المقهى ، وفي الازقة المتربة ، الحياة النابضة بالقوة ، المتسائلة بالنظرات الحيرى ، بالسواعد التي نشده في العناق . ويمتزج كل شيء الماضي والحاضر معا ، التجربة الثرة والردود العفوية ، وشعر بأن كل ما حوله صادق ، اصيل ، صميمي ، وانه جزء من هؤلاء الفلاحين تغوص جذوره في اعماقهم . وطاف الازقة ، لم تنبض اعصابه بارهاق جديد ، وكان يستغرق باكتشاف بنوته للارض، ويعانق الذكرى ، ويتنفس بلفحة اللقاء ، ويرى الصغار يعيدون العاب طفولته ، مجموعاتهم تذكره بايامه . في البقعة ذاتها من ساحة القرية حيث كانوا يتجمعون ، واحس بحنان لذلك التراب الناعم الذي شهد دورات عديدة من حياة هذه القرية . كان يريد أن يقيس مدى ارتباطه بالارض ، مدى العلاقة التي تشده اليها ، وهل سيتحمل فكرة فقدان هذه الارض ، وفكر بالقرى العربية التي ضاعت ، ولكنه لم يفكر ان يضع نفسه مكان واحد من اهلها ، فذلك يمثل ارهاقا فكريا لا طاقة له عليه . كان قد شاهد آلافا منهم في مخيماتهم ، ورأى بؤسهم ، كانوا جزءا من صورة قاتمة ، وكان يرى انهم امر لا بد منه يرافق ما حدث ، وفكر بانه كان عليهم البقاء في ارضهم رغم كل شيء، وان ذلك اكثر فائدة للقضية .

وصار يحضر الى المقهى كل يوم ، تشده نشرات الاخبار الى الراديو ، واحداث القتال في قناة السويس ، وكانوا يتوقفون عن اللعب في المقهى حين تذاع الاخبار ، وكان يتحدث لهم عما يجري هناك، يشتري الصحف والمجلات ، يتابع نشرات الاخبار ليلا ويستنتج لهم ، كان همه الكبير احداث رأي عام موحد ، وتلك هي مهمة المقاومة قبل ان تخوض القتال ، فقد كان خطر ذوبان الحماس او فتوره يشكل عدوه الاكبر ، وهو يعرف ان الوعي وحده الكفيل بابقاء التوتر ، وان دور المقاومة هو أبقاء الشعلة ملتهبة ، واهتمام الناس منصبا على الاحداث ، وان العفوية التي شاهدها في قريته بحاجة الى ضابط يضبطها ، يوجهها ، ويقودها . وان المعركة الحقيقية هي وحدها القائد ، وان المقاومة بدون معركة ، لا جدوى منها .. ستذبل وتضمر وتنحل .

البصرة

محمود الكعبي